IUGJHR
Vol 27, No 03, 2019, pp 379-401

ISSN 2410-3179

مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الانسانية

تاريخ الإرسال (2018-01-15)، تاريخ قبول النشر (2018-04-22)

دور الضّمائر في تحقيق التماسك النصي في سورة الحج

أ. حمزة غازي عيسى [1,*]

[1] قسم اللغة العربية وآدابها - الجامعة الأردنية/ معلم في وزارة التربية والتعليم الأردنية

[*] البريد الالكتروني للباحث المرسل:
E-mail address: hamzaaysa@yahoo.com

الملخص:

يشير مصطلح "التّماسك النصّيّ" في أدبيّات اللّسانيّات النّصّيّة ، وتحليل الخطاب إلى التآلف ، والانسجام ، والاتّساق ، بين تلك العناصر المكوّنة للنّصّ ، والّتي تشمل جميع الرّوابط الشّكليّة والمضمونيّة ، وتصنعُ أو تمثّلُ - في الوقت ذاتِه - نسيجًا قويًّا للنّصّ على المستويين : السَّطحيّ ، والعميق.

يهدف هذا البحث إلى تقديم تصوّرٍ نظريّ عن دور الضّمائر في تحقيق التّماسك النّصّي ، باعتبارها إحدى آليّات الرّبط والانسجام التي تحقق التّماسك النّصيّ، ثم يتّخذ البحث من سورة الحجِّ نموذجًا للتّطبيق ، كاشفًا عن التّناغم والانسجام في تداوليّة الضّمائر بأنواعها المختلفة فيها . ويتضمّن البحث تمهيدًا في مفهوم التّماسك النصي ، ودور الضّمائر في تحقيقه ، ويكشف في التطبيق عن أربع سماتٍ رئيسة للإحالة بالضّمائر في سورة الحجّ ، وهي : كثافتُها وتدفُّقها ، وتنوّعُ مجالِها الإحاليّ ، وتعدُّدُها لكلِّ مرجع ، والالتفاتُ والتنقُّلُ بينها.

كلمات مفتاحية: الضّمائر ، التّماسك النّصي ، الإحالة بالضّمائر، سورة الحجّ.

The Role of the Pronouns in Achieving the Textual Coherencein Surat Al-Hajj

Abstract

The term "textual coherence" in the literatures of text linguistics refers to the analysis of discourse in terms of the harmony and consistency between those elements consisting the text, which include all formal and implicitconnectors and, at the same time, create or represent a strong texture of text on both Shallow and deep levels .

This research aims at presenting a theoretical conception of the role of pronouns in achieving the textual coherence, as one of the mechanisms of connection and harmony that achieves the textual cohesion .

Then the research adopts Surat Al-Hajj as a model for the application, revealing harmony in the deliberative pronouns of different types .

The research includes a preface to the concept of textual coherence, and the role of pronouns in achieving it, and reveals four main features of the personal pronouns reference in Surat Al Hajj: their concentration and flow, the diversity of their field of reference, their multiplicity for each reference, and shifting and movement.

Keywords: Pronouns, Textual coherence, Pronouns Reference,and Surat-Al hajj

تمهيد – في مفهوم التّماسك النّصيّ:

تتّجه البحوث والدّراسات النصيّة التطبيقيّة للكشف عن تقنيات التّرابط والتماسك في النصوص الأدبيّة ، من منطلقٍ أساسٍ مؤدّاه أنّ النّص لا يكون نصًّا إلا إذا تحقّقت فيه معايير معيّنة تنبئ عن مدى تناسقه وترابطه والتحام أجزائه.

ويرى باحثون أنّ التماسك النصّي أهمّ عناصر النصّ إذ " المعتمد عليه في تحقق النّصيّة من عدمه، فهو يهتمّ بالعلاقات بين أجزاء الجملة، والجملة بالجمل الأخرى، وبين جمل النصّ، وفقراته، وبين النصوص المكوّنة لكتاب كالقصائد المكوّنة لديوان شاعر، ويهتم بالعلاقة بين النصوص المكوّنة والسياق الخارجي"[1] وهذا التوصيف يدلّ على امتداد ميدان التماسك النصّي المقصود على مساحةٍ واسعةٍ في العمل الأدبيّ لا تغادره من مبتدئه إلى منتهاه.

ونظرًا للإشكاليّة المعهودة في تناول المصطلحات الأدبيّة واللّغوية المعاصرة – ولا سيّما المترجمة منها – نجد اختلافًا في المفهوم، وفي حدود المصطلح – أيضًا – في المراجع المعتمدة ، وفي الدراسات النصيّة التي تتّخذ من مبادئ لسانيات النصّ منطلقًا لها ؛ وذلك للأسباب نفسها التي أدّت إلى إشكاليّة المصطلح في الدّراسات الأدبيّة واللغويّة – بوجه عام – في ظلّ اختلاف المنطلقات والمرجعيّات ، وتعدُّد الثقافات ، واختلاف اللّغات.

ومن هنا ، فإنّ جمع آراء الباحثين على مفهوم واحد لمصطلح التماسك النصّي الذي يشمل جميع الروابط الشكلية والمضمونية في النّص– كما تقدم – أمرٌ في غاية الصعوبة ؛ " لتداخله مع مصطلحات أخرى قد تعبّر عنه من بعيد أو قريب ، وتتّضح الإشكاليّة الحقيقيّة في تفريق العلماء بين مصطلحات تدلّ على التماسك الشكلي (كالترابط والاتساق والسّبك) ومصطلحات تدلّ على التماسك الدلالي (المضموني) كالانسجام والحبك، وهناك من يرى أنّ إطلاق تسمية التّماسك تجمعُ بين هذين النّوعين"[2] وهو الرأي الذي أميل إليه؛ لأنّ التماسك النصّي في حقيقته يجمع النّوعين كليهما.

ومهما يكن من أمر في تعدّد هذه المصطلحات وتداخلها، فإنّ المفهوم العام للتّماسك النّصيّ يشمل معياري : الاتّساق ، والانسجام ، أو ما يقابلهما (السّبك والحبك) باعتبارهما أهمَّ معيارين من المعايير النّصيّة السّبعة التي اقترحها دي بوجراند وهي: السبك ، والالتحام ، والقصد ، والقبول ، ورعاية الموقف ، والتّناصّ ، والإعلاميّة[3]. وبذلك فإنّ التّماسك النصّي يتّصل بصلب النصّ ، ويبحث في داخله.

ويتحقّق التّماسك النصيّ عبر أدوات وتقنيات متنوّعة من أهمّها : الإحالة ، والتكرار ، والاستبدال ، والحذف ، والوصل ، وغير ذلك . وتتمّ الإحالة بطرق متعددة أيضا ، منها : الضمائر ، وأسماء الإشارة ، وأدوات المقارنة ، وغيرها . ويعتني هذا البحث بالضمائر الإحاليّة ، وبيان دورها في تحقيق التّماسك النصيّ.

(1) مفتاح ، التماسك النصي للاستخدام اللغوي في شعر الخنساء (ص19).

(2) البستاني والمختار، في مفهوم النص ومعايير نصيّة القرآن الكريم (ص184).

(3) دي بوجراند ، النص والخطاب والإجراء (ص103).

دور الضّمائر في التّماسك النصّي :

تؤدّي الضمائر دورًا مهمًّا في تحقيق التّماسك النصّي؛ باعتبارها أهمّ أداة من أدوات الرّبط التي تعمل على ديمومة التّماسك النصّي شكلًا ومضمونًا؛ ولذلك نرى الاهتمام بدراسة الضّمائر ، وتتبّع أثرها ودورها ، ماثلًا في الدّراسات النظرية والتطبيقية في علم اللّغة النصّي.

والملحوظ أنّ الاهتمام بالضّمائر ، وتتبّع دورها في التّماسك النّصي يتصدّر مبحث (الإحالة) في أدبيّات ومراجع لسانيّات النّص ، والإحالة هي " الإماءة باللفظ إلى لفظٍ سابق ، أو معناه ، أو مضمونِ قولٍ ، ونوطِه به"[1] وتشمل الأدوات الإحاليّة التي تستعمل للربط : الضمائر ، وأسماء الإشارة ، وأدوات المقارنة ، وغيرها ، إلا أنّ الضمائر تعدّ " أفضل الأدوات التي يستعملها المتكلمون للإحالة على كيانات معطاة"[2]؛ ذلك لما لها من دور فعّال في تحقيق الترابط على مستوى الجمل والفقرات، وعلى امتداد النصّ وإن طال.

وإذا كانت الإحالة تقسم عند النصّيّين إلى: إحالة خارجيّة (مقاميّة): بأن يُحيل عنصرٌ في النصّ إلى شيء خارج النصّ، " وهي الإحالة برابط للدلالة على أمر غير مذكور في النص مطلقًا ، وتحديدها يحتاج إلى السّياق والمعارف العامة "[3] ، وإحالة داخليّة (نصيّة) : تقع داخل النصّ – فإنّ النوع الثاني هو الذي يشمل الضّمائر المقصودة بالبحث هنا ، فهي التي تتميّز بأنّها " من أهمّ ما يغني عن إعادة ذكرِ العنصرِ الإشاريّ، إذ يتعذّر أن يُعادَ ذكرُه في كلِّ مرة يُحتاج فيها إلى ذكرِه، أو التذكير به، وهنا تقوم هذه الضمائر بوظيفة الربط بين وحدات النصّ وأجزائه"[4]، وهو – كما يبدو – دور فعّال في الترابط والتّماسك النصّي.

ويرى الأزهر الزنّاد أنّ الإحالة عنصرٌ مهمّ في التّماسك النصّي ؛ لأنّها عاملٌ " يحكم النصّ كاملًا في توازٍ مع العامل التركيبيّ والعامل الزمنيّ"[5] ، وإذا كانت الرّوابط الإحاليّة – وأهمّها الضمائر – تعمل عادةً في المدى القريب بين العنصر المُحيل والمحال إليه (الضمير والمفسِّر) ، إلا أنّنا – مع ذلك – نجد بعضها "يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النص، فيربط بين عناصر منفصلة ومتباعدة من حيث التركيب النحويّ؛ ولكنّ الواحد منها متصل بما يناسبه أشدّ اتّصال من حيث الدلالة والمعنى"[6] . وهو دور تشترك فيه مع الضّمائر عناصرُ إحاليّةٌ أخرى كأسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

وتحتلّ ضمائر الغائب أهميّة تفوق ضمائر المتكلم ، والمخاطب ، في بحوث التّماسك النصّي ، ويعلّق محمد خطابي على ما ذهب إليه هاليدي ورقية حسن في هذا السياق بقوله : "أمّا الضمائر التي تؤدّي دورًا هامًّا في اتّساق النصّ فهي تلك التي يسمّيها المؤلّفان : " أدوارًا أخرى " (Other roles) ، وتندرج ضمنها ضمائر الغيبة إفرادًا وتثنية وجمعًا (هو، هي، هم،

(1) عكاشة ، تحليل النص (ص219).
(2) عرباوي ، دور الرّوابط في اتساق وانسجام الحديث القدسي (ص90).
(3) قادر، الانسجام في الخطاب القرآني (ص333).
(4) يونس، العلاقات النصية في لغة القرآن الكريم (ص193).
(5) الزنّاد، نسيج النصّ (ص124).
(6) الزنّاد ، نسيج النص (ص124).

هنّ، هما) ... إذ تقوم بربط أجزاء النص وتصل بين أقسامه"[1] وهو قولٌ في غاية الوجاهة والوضوح ؛ لأنَّ ضمائر المتكلم والمخاطب قد تحيل إلى خارج النصّ، فتكون الإحالة سياقيّة (مقاميّة) " وهذا النوع يربط اللّغة بالعالم الخارجيّ ، فتكون أكثر فاعلية وتأثيرًا في المتلقّي ، فهي لا تفسَّر في ضوء النّص وحدَه ، بل في ضوء علاقتها بالعالم الخارجيّ"[2]؛لأنّها ترتبط وقتذاك بمعلوماتٍ ومعارفَ خارج النّص ، ينبغي أن يكون المتلقّي على معرفة بها ،"فضمير المتكلّم والمخاطب بطبعهما لا يحيلان إلى مذكور سابق ، ويتطلّب استعمالهما معرفة سابقة بالهوية بالنسبة لطرفي الاتّصال"[3]، وربَّما يحدث إشكالٌ في وصول رسالة النصّ دون الوقوف على تلك المعلومات ، مع أنّها خارج النص في الواقع .

وتجدر الإشارةُ هنا إلى ما تتميّز به الضّمائر المتّصلة من قوّة الرّبط وتحقيق التّماسك ، إذ إنّها تتقدّم في دورها على الضّمائر المنفصلة والمستترة ؛ فهي تعود غالبًا إلى مذكور في النصّ ، وقد تقترب المسافةُ بينها وبين المحال إليه أو تبتعد ، فتبقى كجسر رابط بين كلِّ مُحيلٍ ومحالٍ إليه على امتداد النص ، وبذلك يتشكَّلُ للنصِّ نسيجُه والتحامُه ، أمّا الضّمائر المنفصلة والمستترة فقد تحيلُ إلى خارج النص ، فتكون أقربَ إلى الإحالات المقاميّة التي تفسَّر من خارج النصّ اعتمادًا على السياق ، خلافًا للضمائر المتّصلة التي لا انفكاك لها عن التّرابط مع مذكور أو مفهوم من النص .

ولعلّ من الضّروريّ في هذا المقام التأكيد على أنَّ الضمائر المقصودة هنا ليست ضمائر الغائب المنفصلة المذكورة آنفًا وحسب، بل يشمل ذلك الغيبة في صورها كافة : منفصلة ، ومتّصلة ، ومستترة ، مع التّأكيد على أهميّة دور ضمائر الغائب المتّصلة ؛ لأنّ دورها في التّماسك النّصيّ واضحٌ بإعادة كلّ واحدٍ منها إلى المفسِّر المحال عليه ، وهو ما يؤكِّد قيمة الإحالة التي "تحقّق للنصّ التحامه وتماسكه، وذلك بالوصل بين أواصر مقطعٍ ما، أو الوصل بين مختلف مقاطع النص"[4].

ومن الجدير بالذكر هنا كذلك الإشارة إلى نظرية هارفج بشأن سلاسل الإضمار (تتابع الضمائر) التي أشار إليها فولفجانج هاينه وزميله بالقول: " تعدّ ظاهرة الإضمار بوجه خاصّ – منذ هارفج 1968 – شرطًا من الشروط النحويّة – التركيبيّة الأساسيّة لتماسك النّص، ...، فهذا الاستبدال (الإضمار) يكفل تبعًا لقول هارفج اتّساق سياق النصّ، أي أنّ أشكال التسلسل الضميري تلك –حسب فكرته الجوهريّة– هي الوسيلة الحاسمة لتشكيل النص. ومن ثم يعرف النصّ بأنه : تتابع لوحدات لغويّة يشكّله تسلسل ضميريّ متّصل"[5] ويحيل المؤلفان إلى كتاب هارفج بشأن هذه النظرية.

وإنّ المتأمّل في ما ذهب إليه هارفج يجد أنّ نظريته هذه تشير بوضوح إلى دور الضمائر في بناء النصّ وتماسكه "لأن مبدأ التسلسل الضميري سمة من أهم سمات علاقات التّماسك الداخليّة بين النصوص"[6] حتّى وإن بدا في هذه النظرية نوعٌ

(1) خطابي، لسانيات النص، مدخل الى انسجام الخطاب (ص18).
(2) عكاشة ، تحليل النص (ص219) .
(3) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء (ص333) .
(4) الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه (ص88).
(5) فولفجانج وفيهفجر، علم لغة النص (ص23).
(6) المرجع السابق، ص23.

نوعٌ من المبالغة في تقدير قيمة الضمائر، وإن كان يُؤخذ عليها أنّها تجعل الإضمار شيئًا حتميًّا في جميع النصوص، إلّا أنّه ينبغي أن يُنظر إليها في سياق الحديث عن أهميّة الضمائر في التحليل النصّي، دون إلزامٍ بأن تكون الكلمة الأولى والأخيرة.

وفي محصّلة الأمر ، يتبيَّن لنا أنَّ من المقرَّر المتَّفَق عليه في الدّراسات النصيّة ، أنَّ للإحالة دورًا مركزيًّا في التماسك النصي ، "فالإحالة أُولى الأدوات التي يذكرها الباحثون عند حديثهم عن أدوات الاتّساق ؛ لما لها من أهميّة في الرّبط بين أجزاء النّص"[1] ، كما أنَّ للضمائر دورًا نسيجيًّا في تماسك النصّ ، يفوق تلك الفوائد التقليديّة الشائعة التي تُذكرُ في الدرس اللّغويّ التقليديّ كلَّما ذُكِرت فائدة الضمائر وأغراضها ، والتي يقصرونها على الاختصار ، والتعظيم ، والتحقير ، منتبهين إلى أغراضها البلاغيّة ، مقصِّرين في بيان دورها في سبك النصّ والتحامِه وتآلف أجزائه ؛ " فالضّمائر تعدُّ العصب الرئيس السّاري في بناء النصّ، فبها ومن خلالها يتبدّى تمسُّكه، وبها ومن خلالها أيضًا يمكن تلقّيه، وبدونها يغدو النصّ مفكّكًا"[2]، وهذا هو الدور الأساس الذي تعنى الدّراسات النصّية بتتبّعه وتحليله " وبذلك يجد المتلقّي للنصّ نفسَه يتحرّك داخل النصّ للأمام والخلف بحثًا عن تعلّق الضمير وتحديدًا لهويّته ، ومن ثم يتحقّق الرّبط بين عناصر النص"[3] ، ويأتي هذا البحث للمساهمة في الكشف عن دور الضمائر في التّماسك والتّرابط والالتحام في سورة الحج .

بين يدي سورة الحجّ

سورة الحجّ هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب سور القرآن الكريم ، وفي ترتيب نزولها خلاف ، وهي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي سمِّيت باسم ركن من أركان الإسلام ، كما أنّها السورة الوحيدة التي فيها سجدتان للتلاوة . ويشير عنوانها إلى موضوع أساسيّ فيها وهو موضوع الحجّ ، الذي بيَّنت آياتُها أحكامَه ومناسِكه ، إلى جانب تأكيدها على الإيمان بالله تعالى ، والحثّ على توحيده وعبادته ، والتحذير من عاقبة الكافرين والمكذّبين ، وبيان جزاء المؤمنين والصالحين .

ويبدو من خلال موضوعاتها الفرعيّة أنّ فيها آياتٍ مدنيّة وأخرى مكيّة ، وفي تحديد تلك الآيات خلافٌ واسعٌ لا يخدم البحث ؛ إذ لا يُعرَفُ بقولٍ جازم موضعُ كلِّ صنفٍ منهما ، على أنَّ السيوطيّ رجّح القول بأنّ آياتِها مختلطة بين المكيّ والمدنيّ ، ونسب القول بذلك إلى الجمهور " وقيل : هي مختلطة ، فيها مكيّ ومدنيّ ، وهو قول الجمهور"[4] .

ويروي المفسّرون أخبارًا عن تنوّع تصنيفات الآيات في هذه السّورة كقول هبة الله بن سلامة (ت410هـ) : " هي من أعاجيب سور القرآن ؛ لأنَّ فيها مكيًّا ومدنيًّا ، وحضريًّا وسفريًّا ، وحربيًّا وسلميًّا ، وليليًّا ونهاريًّا ، وناسخًا ومنسوخًا "[5] وإن

(1) الزعبي ، الوظائف النصيّة لعناصر الاتساق – تطبيق على سورة هود (ص296).
(2) عيد ، النص والخطاب – قراءة في علوم القرآن (ص214) .
(3) القطاوي ، الضمير وبعده الدلالي في شعر عبدالكريم الكرمي (ص96).
(4) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (ج68/1).
(5) هبة الله بن سلامة ، الناسخ والمنسوخ (ص65). وقد نقل مقولته هذه كثير من المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم ، ينظر مثلا : ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير(ص947) ، والعيني ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (مج94/19).

لم يكن بالإمكان القطعُ بدقةِ جميع ما سبق ، أو الجزم ببيان نصيب كلّ قسم من هذه الأصناف من آيات السورة ، إلا أنّ ذلك لا يخلو من الدلالة على تنوّع موضوعاتها الفرعية التي تنتمي لفكرتها الرئيسة .

أمّا الفكرة الرئيسة للسورة التي تمثل محورَها الأساس ، أو بؤرتها المركزية ، فهي الحث على الإيمان بالله تعالى وتوحيده ، ويتفرَّع منها الإنذار والتحذير من التكذيب بوعده ، وسوق البشائر للمؤمنين الصادقين ، وما يتعلّق بذلك من سلوك كلّ طائفة ، وبيان أحوالها يوم القيامة جزاءً على ما قدّمت في الدنيا .

الدّراسة التطبيقيّة :

تقدِّم الضّمائر في سورة الحجّ مثالًا واضحًا للدَّور الذي يمكن للإحالة النصيَّة(الداخليّة) أن تقدِّمه في سبيل تماسك النصّ وترابطه، والمحافظة على نسيجه شكلًا ومضمونًا؛ وذلك لما تتضمّنه السّورة الكريمة من أعدادٍ كبيرة من الضمائر تتميّز بسماتٍ تعطي لتفاعلها لونًا خاصًّا من التّرابط والانسجام ، هذا ويمكن تتبُّع هذه الضمائر ، وتحديد سماتها ، وبيان دورها في التّماسك النصّي وفق العناوين الآتية التي تمثّل أهمّ السّمات الإحاليّة للضمائر في سورة الحج.

أوّلًا: كثافة الضمائر وتتابعها وقوّة حضورها.

يُظهِرُ الجدول رقم (1) الآتي أعدادَ الضّمائر الواردة في سورة الحجّ ، ويبيِّنُ أنواعها والنّسبة المئويّة لكلِّ نوع منها ، ولعلّه أمرٌ واضح الدّلالة على كثافة الضّمائر ، وتتابعها ، وقوّة حضورها في السّورة الكريمة ؛ إذ بلغ العدد الإجماليّ للضّمائر فيها أربعَمئةٍ وأربعةً وأربعين ضميرًا ، تتصدّرها **ضمائر الغائب** التي سبق بيانُ التأكيد على دورها في تحقيق التماسك النصيّ ، وقد بلغ عددُها ثلاثَمئةٍ وسبعةَ عشرَ ضميرًا ، بنسبة مئويّة وصلت إلى (71.3 %) من العدد الإجماليّ للضمائر في السورة الكريمة .

جدول رقم (1) أعداد الضّمائر وأصنافها في سورة الحجّ

نوع الضّمير / التكرار	ضمائر المتكلّم	ضمائر المخاطب	ضمائر الغائب	العدد الإجماليّ
العدد	34	93	317	444
النسبة المئوية	% 7.6	% 20.9	% 71.3	%100

وبإعادة توزيع ضمائر الغائب التي تتصدَّر المشهد إلى أصنافها الثّلاثة : المتّصلة ، والمنفصلة ، والمستترة – يظهرُ حضور **ضمائر الغائب المتّصلة** التي تؤدّي الدّور الأكبر في تحقيق التّماسك النّصيّ كما سبق ذكره ، وبصورة تؤكِّد تضافر هذه الضّمائر مع أدوات التّرابط والانسجام الأخرى في تحقيق التماسك والالتحام بين مكوّنات النص .

ويُظهِر الجدول رقم (2) الآتي توزيع ضمائر الغائب إلى أصنافها الثلاثة المذكورة ، والنسبة المئوية لكلّ صنفٍ منها ، ويبدو واضحًا تصدُّرُ ضمائر الغائب المتّصلة على النّوعين الآخرين ، بنسبة مئويّة وصلت إلى (63.7 %) من العدد الإجماليّ لضمائر الغائب في السورة الكريمة .

جدول رقم (2) توزيع ضمائر الغائب إلى أصنافها في سورة الحجّ

نوع الضمير / التكرار	ضمائر الغائب المنفصلة	ضمائر الغائب المستترة	ضمائر الغائب المتصلة	العدد الإجمالي
العدد	18	97	202	317
النسبة المئوية	% 5.6	% 30.7	% 63.7	%100

وبناءً على ما سبق يُمكِن القول : إنّ من أهمّ سمات الضّمائر في سورة الحجّ تتابعَها ، وتدفُّقَها ، بصورة تعزّز التّماسك على مستوى الجملة ، وعلى مستوى المقطع من السّورة (الوَحدة النّصيّة) ، وعلى مستوى السورة كاملة (النصّ) ، وسنعرض هنا لثلاثة مقاطع من السّورة الكريمة لتوضيحِ الأمر ، وإن كانت هذه السِّمة تنسحبُ على جميع مقاطع السّورة التي سيأتي عرضها في المباحث اللاحقة ؛ لأنّ كثافة الضّمائر وتتابعها تمثِّل أساسًا للسّمات الأخرى التي تتولّد عنها في السّورة الكريمة ، لتشكِّل الوَحدة النصيّة الكاملة للسورة الكريمة .

وللوقوف على مثالٍ أوليٍّ على هذه السِّمة نتتبَّع الضّمائر في الآيات الكريمة الآتية . **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (11) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13)** **[الحج : ١١-١٣]**

إنّ الضّمائر الرّابطة التي تضمّنتها الآيات الثّلاث السّابقة – بهذه الكثافة والتّتابع – لَمِثالٌ جليٌّ للتدفّق الأخّاذ الذي تتميَّز به الضّمائر هنا؛ فالضّمير (هو) المستتر في الفعل (يعبد) – والذي يحيل إلى الاسم الموصول (مَنْ) – يتبعه عَشَرة من الضّمائر التي تحيل إلى المرجع نفسه في وَحدةٍ نصيّة في غاية التّماسك على النّحو الآتي : " أصابه **(هو)** ، اطمأنّ **(هو)** ، أصابته **(هو)** ، انقلب **(هو)** ، وجهه **(هو)** ، خسر **(هو)** ، يدعو **(هو)** ، يضرّه **(هو)** ، ينفعه **(هو)** ، يدعو**(هو)** " فكأنّ الذي يقرأ الآيات الثّلاث لا يفارقه الضّمير المُحِيل (العنصر الإحاليّ=هو) الذي يحيل إلى ذلك الإنسان القلق (العنصر الإشاريّ) المتقلّب في عقيدته وإيمانه ، **فهو** الّذي اتخذ من عبادة الله سوقًا وتجارة وربحًا وخسارة ، **وهو** الذي يطمئنّ إنْ أصابه خيرٌ ونعيم بسبب إيمانه المزيَّف المزعوم ، **وهو** الّذي ينقمُ على الدّين ويتنكّر للمعتقد إنْ أصابه الابتلاء، **وهو** الذي انقلب وارتدَّ وخسر، **وهو** الذي راح يدعو من لا يضرّه ولا ينفعه ، وبذلك تتبدّى فاعليّته السلبيّة ، وتظهرُ صورته المتردّدة التّائهة في لوحةٍ معبِّرة متكاملة بفعلِ التّرابط والانسجام النّصّي ، أسهمت الضّمائر في الكشف عنها ، وتقديمها بصورة ماثلة أمام المتلقّي ، في غاية الحضور والوضوح .

ويلفت النّظر في الآيات الكريمة السّابقة ، أنّ الضّمائر العشرة المتتابعة فيها انقسمت إلى مجموعتين متساويتين، حيث نجد خمسة منها استترت في الأفعال وهي : (اطمأنَّ، انقلب، خسر، يدعو، يدعو) ، وخمسة أخرى جاءت متّصلة بما يسبقها وهي : (أصابه، أصابته، وجهه، يضرّه، ينفعه) ، ممّا أعطى للآيات الكريمة وقعًا خاصًّا في الانسجام والتلاحم والإيقاع ، ولاسيّما مع تناوب الضّمائر بينها ظهورًا واختفاءً ، زيادةً في التّماسك والوئام.

إنّ إعادة قراءة الآيات الثّلاث – بعد الالتفات لهذه الظاهرة – تجعلُ المتلقّي في حضورٍ دائم ، واستسلامٍ لسُلطة الضّمير المُحيلِ وكثافته وقوته ، فلا يكاد المتلقّي يبتعد قليلًا عن العنصر الإشاريّ المحال إليه (المتقلّب في إيمانه المتاجر في عقيدته) إلّا ويقرع سمعه العنصر الإحاليّ الحاضر بتدفّقٍ وكثافةٍ وتتابع (**الضمير هو**) ، ليبقى النّصّ شكلًا ومضمونًا في أعلى درجات التّماسك ، ولتبقى صورة ذلك الدّعيّ المنافق ممتدّةً حاضرة ، محقّقة للتّنفير والتّحذير المقصود دون انقطاع .

وتؤدّي كثافة الضّمير ، وقوّة تدفّقه وتتابعه ، دورًا مركزيًّا – أيضًا – في تحقيق التّماسك النصّي في مثال آخر، يمكن رصده في الآيات الكريمة الآتية:

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [الحج: 19– 22]

يمثّل الاسم الموصول وصلته **(الذين كفروا)** عنصرًا إشاريًّا ، ترجعُ إليه مجموعة متوالية من الضّمائر ، تصل إلى عشرة ، ابتداءً من فاعل جملة الصّلة ، وعلى الترتيب الآتي (كفروا، قُطّعت لهم، رؤوسهم، بطونهم، ولهم مقامع، أرادوا، أن يخرجوا، أعيدوا، وذوقوا " فهذه تسعة ، ويمكن تقدير العاشر المتمّم لها بسهولة قبيل جملة الختام " □ □ □ " ؛ لأنّها جملة مقول القول بتقدير (وقيل **لهم** : ذوقوا عذاب الحريق) [1].

ولقد ساهم هذا التّتابع ، والتدفّق للعناصر الإحاليّة التي تعود جميعها إلى العنصر الإشاريّ نفسه **(الذين كفروا)** بتحقيق الانسجام ، والتّرابط ، بصورة جليّة واضحة ؛ فالمقطع النصّيّ هنا يشدّ المتلقي نحو تفاصيل تلك الأهوال التي يعانيها الذين كفروا في نار جهنّم " إنّه مشهدٌ عنيفٌ صاخبٌ بالحركة، مطوّل بالتخييل الذي يبعثه في النّفس نسق التعبير. فلا يكاد الخيال ينتهي من تتبّعه في تجذّده .. هذه ثياب من النّار تقطع وتفصّل! وهذا حميمٌ ساخن يُصبُّ من فوق الرؤوس.. وهذا هو العذاب يشتدّ، فيهبُّ الذين كفروا من الوهج والحميم والضرب الأليم يهمّون بالخروج من هذا الغمّ ، وهاهم أولاءِ يُردّون بعنف، ويسمعون التأنيب : وذوقوا عذاب الحريق"[2].

وفي مقطع نصّيّ آخر من السّورة الكريمة يمكن النّظر – مرّةً أخرى – إلى هذه السِّمة ، التي تقدّم الضّمائر فيها لوحةً من الانسجام والتكامل النصيّ ؛ ممّا يجعل المتلقّي ممسكًا بالفكرة ، متشبّثًا بالموضوع ، فاهمًا للرّسالة المقصودة من الخطاب المترابط المتكامل، إنّها كثافة الضّمائر ، وقوّتها ، وسطوتها الّتي تصنع نسيجًا في غاية الالتحام والالتئام ، ويمكن توضيح الأمر في الآيات الكريمة الآتية :

لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (37) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ [الحج : 36– 37]

(1) ينظر: الزمخشري ، الكشاف (ص693) . والبيضاوي ، أنوار التنزيل (ج68/4) . والبقاعي ، نظم الدّرر (ج31/13).

(2) سيد قطب ، في ظلال القرآن (مج2415/4).

إنّ المتأمّل في هذه الآيات الكريمة يجد النصّ على درجةٍ سامية متميِّزة من التّماسك والتعاضد بكثافة وفاعليّة الضّمير المتّصل **(ها)** الّذي تكرَّر في الآيات تسع مرّات عائدًا على **(البُدْن)** وفق الترتيب الآتي: **(جعلناها، لكم فيها، عليها، جنوبُها، فكلوا منها، سخّرناها، لحومها، دماؤها، سخّرها)**.

وبالنَّظر في هذه الآيات الكريمة – لفظًا ومضموناً وإيقاعًا – نلمسُ قوّة تماسكها ، وجمال انسيابها وترابطها ؛ إذ ساهم الضّمير المُحيل الحاضر بقوّة وكثافة في تأكيد هذا التّرابط والتماسك ، فيظلُّ القارئ **(المتلقّي)** مستحضرًا الفكرة الرئيسة والنّعمة المقصودة **(البُدْن)** وفق ترابط شكليّ ومضمونيّ في غاية الجمال والانسجام.

ولعلّ ممّا يلفت النّظر في الآيات الكريمة أنّ الضمير الرّابط **(العنصر الإحاليّ= ها)** توزّع على الأفعال والأسماء والحروف من حيث الاتّصال ، وفق انتظامٍ إيقاعيٍّ إضافيّ ، إذ تتقسم الضّمائر المتّصلة التّسعة السّابق ذكرُها على أقسام الكلمة الثلاثة ، ليكون نصيبُ كلٍّ منها مساويًا لنصيب القسم الآخر، فالرابط مع الأفعال **(جعلناها، سخّرناها ، سخّرها)** ومع الأسماء **(جنوبُها، لحومها، دماؤها)** ومع الحروف **(فيها، عليها، منها)** ممّا أضفى على توزيع هذا العنصر الإحاليّ المكرّر إيقاعًا خاصًّا ، وجماليّة فريدة مع هذا التّماسك والتّرابط النصيّ العميق.

وباستعراض هذه المقاطع الثلاثة من السورة الكريمة يتبدّى لنا ذلك الدور الفعّال الذي تؤدّيه الإحالة بضمائر الغائب في تماسك النص ، ونلمس قوّة الضمائر وتتابعها وكثافة حضورها ، ممّا أضفى على التّتابع والتّرابط الشكليّ والمضمونيّ في الآيات الكريمة نمطًا خاصًّا من التآلف والانسجام .

ثانياً: تنوّع المجال الإحاليّ للضمائر.

تتميّز الرّوابط الإحاليّة في سورة الحجّ بتنوّع مداها ومجالها؛ ويمكن للمتمعّن فيها بوجه عام، وفي الضّمائر منها بوجه خاصّ ، أن يقف على نماذج متعدّدة من دور هذا التنوّع في تحقيق التّماسك النصّي ، انطلاقًا من مبدأ رئيسٍ في لسانيّات النصّ مفاده أنّه "يكتمل الملفوظ نصًّا عندما تترابط أجزاؤه باعتماد الروابط الإحاليّة. وهذه الروابط تختلف من حيث مداها ومجالها؛ فبعضها يقف في حدود الجملة الواحدة يربط عناصرها الواحد منها بالآخر ، وبعضها يتجاوز الجملة الواحدة إلى سائر الجمل في النصّ"[1].

إنّ هذا التنوّع في المسافات بين العناصر الإشارية والعناصر الإحاليّة – قربًا وبُعدًا – أمرٌ جديرٌ بالملاحظة والدّرس والاهتمام ؛ لما للكشف عنه من صلة في بيان وتوضيح دوره في التّماسك ؛ ولأنّ كلَّ رابط من هذه الرّوابط " متّصل بما يناسبه أشدّ الاتصال من حيث الدلالة والمعنى"[2] ويمتدّ هذا التّرابط والتّماسك على المساحة الكلية للنصّ التي تشمل المساحات الجزئية الممثّلة بالوحدات النصيّة (المقاطع أو الفقرات).

(1) الزناد، نسيج النصّ، (ص124).

(2) المرجع السابق، ص124.

وإذا كان للإحالة ذات المدى القريب وهي التي " تكون على مستوى الجملة الواحدة "[1] دورٌ مهمٌ في تحقيق التّماسك والترابط – على مستوى الجملة ، فإنّ ذلك لا يقلّل من دورها – أيضًا – في تحقيق التّماسك والتّرابط النصيّ الكامل ؛ وذلك لموقعها المهمّ في شبكة الروابط المتآلفة المؤثرة في تماسك النص والتحامه، وسنعرض هنا لستةِ أمثلةٍ متنوعة في مساحات مجالاتها الإحاليّة – قربًا وبعدًا – بين العناصر الإحاليّة والعناصر الإشارية ، مع بيان قوّة التماسك والترابط فيها رغم التنوّع في المجال الإحالي ، وأوّل هذه الأمثلة قوله تعالى :

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [الحج : 3– 4]

فالضمائر المستترة في (**يجادل** ، **يتّبع**) والمتّصلة في (**عليه** ، **أنّه** ، **تولّاه** ، **فأنّه** ، **يضلّه** ، **يهديه**) تنتمي إلى الضمائر ذات الإحالة للمدى القريب على مستوى الجملة والجمل المجاورة، وتحقّق ترابطًا وانسجامًا لا يخفى؛ لقرب المسافة بين المحيل والمحال عليه ، إذ لا تتجاوز المسافة بينهما كلمات قليلة .

ومن الأمثلة على ذلك أيضًا قوله تعالى :

ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (9) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [الحج : 8– 9]

فالضمائر المستترة في (**يجادل**، **ثاني**، **ليضل**) والمتّصلة في (**عطفه** ، **له** ، **نذيقه**) واضحة الدّلالة على هذه السِّمة التي تؤكّد التّرابط والتماسك بالإحالة للمدى القريب.

والمثال الثالث على الإحالة ذات المدى القريب في قوله تعالى :

لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (33) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [الحج : 32– 33]

إذ نجد العناصر الإحاليّة الثلاثة (**فإنّها** ، **فيها** ، **محلّها**) تعود إلى العنصر الإشاريّ (**شعائر الله**) الذي أُلْحِق مباشرة بأوّل ضمير إحاليّ (**فإنّها**) في الجملة نفسها.

وأمّا الإحالة ذات المدى البعيد وهي التي " تجري بين الجمل المتّصلة أو المتباعدة في فضاء النص"[2] فإنّها ذات أهميّة كبرى في تحقيق الترابط النصّي؛ ذلك أنّها تساهم في إعادة تقريب الجمل والأفكار، بل تربط مقطعًا بمقطع، أو حادثةً بأخرى، ممّا يجعل دورها في إحداث التماسك النصّي أكبر من دور أختها؛ لأنّ الضمائر بوجه عامٍ " أكبر من مجرّد أدوات ربط تحيلُ

(1) عفيفي ، نحو النص – اتجاه جديد في الدرس النحوي (ص120).

(2) الزناد، نسيج النص (ص124) . وعفيفي ، نحو النص (ص120).

على ما هو سابق أو ما هو لاحق، إنها بنى لا ينفصل فيها الجزء عن الكلّ، ولا الكلّ عن أجزائه المكوّنة له"[1] ويبدو أنّ هذه السّمة تكون أكثر وضوحًا في الإحالة بعيدة المدى ؛ لأنها تبيِّنُ دورَ الضّمائر في تحقيق التماسك النصّي بصورة عميقة ودقيقة.

ومن الأمثلة على الإحالة بعيدة المدى قوله تعالى :

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (41) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۚ [الحج : 39– 41]

حيث نجد العناصر الإحالية التي ترجع إلى العنصر الإشاريّ **(الذين يقاتلون)** متتابعة ومتنوّعة من القريب إلى البعيد.

إنّ هذا المقطع النصّي المكوّن من ثلاث آيات يتضمّن اثني عشر ضميرًا عائدًا على مرجعٍ واحد **(الذين يقاتلون)** على النحو الآتي **(يقاتلون، بأنهم، ظلموا، نصرهم، أخرجوا، ديارهم، يقولوا، مكنّاهم، أقاموا، آتوا، أمروا، نهوا)** ويصل عدد الكلمات التي تفصل الضمير الأخير منها المتّصل بالفعل **(نَهَوْا)** عن مرجعه المحال إليه **(العنصر الإشاري – الذين يقاتلون)** أكثر من خمسين كلمة، مما يُبيِّن دور الإحالة بعيدة المدى في تحقيق التّماسك والوئام، حيث لا يجد المتلقّي أيّ صعوبة في ردّ هذه الضّمائر إلى مرجعها، ولا يخفى عليه ما أحدثته في النصّ من التماسك والانسجام.

وثمّة مثال آخر يؤكّد دور الإحالة بعيدة المدى في تحقيق التماسك النصّي يتّضح في قوله تعالى : **وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (56) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۖ [الحج : 54– 57]**

إنّ الضمير الإحالي لجماعة الغائبين **(هم)** الوارد في الآية السادسة والخمسين في قوله تعالى: ۖ □ □ □ □ □ ۖ يعود على فريقي : المؤمنين ، والكافرين . الوارد ذكرهما على الترتيب في الآيتين : الرابعة والخمسين **(الذين أوتوا العلم)** ، والخامسة والخمسين **(الذين كفروا)** ، ويأتي هذا الضمير في الآية السادسة والخمسين ليعود على الطائفتين معًا ، فالله تعالى هو الذين يحكم بينهم/ بينهما، وليحقق الضمير الرابط بذلك تماسكًا وارتباطًا في المقطع كاملًا ، رغم بعد المسافة – نسبيًّا – بين العنصر المحيل والمحال إليه / إليهما .

وفي الآيات الكريمة : **اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (69) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (70) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (71) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۖ [الحج : 68– 71]**

(1) عيد، النص والخطاب (ص32).

نلحظ أنّ الضمير المتّصل لجماعة الغائبين (**جادلوك، تعملون، يعبدون، ليس لهم به علم**) الوارد في هذه الآيات من الثامنة والستّين حتى الحادية والسّبعين يعود على عنصر إشاريّ – سبق ذكره في آيات المقطع السّابق – في الآية الخامسة والخمسين وهي قوله تعالى : **(55) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فِي جَنّاتِ النّعِيمِ [الحج : 55]**

وقد عمل الضمير الرابط على تحقيق التماسك النصّي – رغم بعد المسافة – لأنّ الذين يجادلون في الله ويشركون بالله وفق مضامين الآيات (68–71) هم الذين كفروا الوارد ذكرهم صراحة في الآية الخامسة والخمسين.

وحيث تمّ توضيح الدّور الفعّال الذي يؤدّيه تماسك المجال الإحاليّ للضمائر في وحدة النصّ وتكامل نسيجه ، فإنّ هذه السمّة ترتبط في الواقع بالسّمة الثالثة التي تتميّز بها الضّمائر الرّابطة في سورة الحج – وسيأتي بيانُها – وهي المتعلّقة بتعدّد الضّمائر الإحاليّة للمرجع الواحد.

وفي خاتمة القول ، حول تنوّع وتماسك المجال الإحاليّ للضّمائر في هذه السورة الكريمة – قربًا أو بعدًا بين العنصر الإشاريّ والعنصر الإحاليّ – يظهر ما تؤدّيه هذه السّمة في النصّ من ترابط والتحام ، وتتبدّى لقارئ السّورة المتأمّل في تتابعيّة الضمائر ، وجماليّة انتظامها ، روعةُ النظم القرآنيّ الفريد، وعمقُ التّواصل بين مفرداتِه ، وجملِه ، ومقاطعِه النصيّة التي تجعلُ من النصّ القرآنيّ موطنًا للإعجاز الذي لا يُجارى ؛ لما يتحقّق في آياته وسوره من النّظم والتآلف الباهر.

ثالثًا: تعدّد الضمائر الإحاليّة للمرجع الواحد:

إنّ تعدّد الضّمائر الإحاليّة الرّابطة التي ترجع لعنصرٍ إشاريّ واحد سمةٌ بارزة في سورة الحجّ تستحقّ الدّرس والتّحليل، ولا شكّ أنّ تعدّد الضمائر العائدة للمرجع الواحد يحقق تماسكًا نصيًّا كبيرًا في سورة تشكّل نصف جزء من القرآن الكريم.

ويلفت النظر حقًّا أنّ تعدّد الضمائر العائدة للمرجع الواحد يمثّل سمةً حاضرةً في كلِّ صفحةٍ من الصّفحات العشر للسورة الكريمة، وتتعدّد الضمائر (العناصر الإحاليّة) التي تعود لمرجع واحد (عنصر إشاريّ) متراوحة ما بين ثلاثةِ ضمائر للمرجع الواحد إلى اثني عشر ضميرًا للمرجع الواحد في حالات أخرى.

ويوضّح الجدول رقم (3) الآتي ملازمة هذه السّمة لآيات السورة الكريمة بذكر أرقام بعض الآيات التي تمثّلها ، وتحديد المرجع المحال إليه ، وعدد الضمائر العائدة عليه ، وذكر هذه الضمائر مع ما اتصلت به ؛ بغية تتبّع هذه السمّة ، وتبيُّن دورها في تحقيق التماسك النصّي.

جدول رقم(3) تعدّد الضمائر المحيلة للمرجع الواحد

تسلسل	أرقام الآيات	المرجع (العنصر الإشاريّ)	عدد الضمائر المحيلة عليه	تحديد الضمائر المحيلة (العناصر الإحالية)
أ	4-3	شيطان مريد	3	كتب عليه/من تولّاه/ فأنّهُ
ب	5	الأرض	4	عليها/اهتزت(هي)/ربت(هي) /أنبتت(هي)

تسلسل	أرقام الآيات	المرجع (العنصر الإشاريّ)	عدد الضمائر المحيلة عليه	تحديد الضمائر المحيلة (العناصر الإحالية)
ج	9-8	مَنْ يجادل في الله	5	ثانيَ(هو)/عطفه/ليضلَّ(هو)/لهُ/ونذيقهُ
د	13-11	مَنْ يعبدُ الله على حرف	10	أصابهُ/اطمأنَّ(هو)/أصابتهُ/انقلب(هو)/وجهه/خسر (هو)/يدعو(هو)/يضرّه/ينفعه/يدعو(هو).
هـ	22-19	الّذين كفروا	7	لهم/رؤوسهم/بطونهم/ولهم/أرادوا/يخرجوا/أعيدوا .
و	24-23	الّذين آمنوا	5	وعملوا/يحلّون/لباسهم/وهُدُوا/وهُدوا
ز	29-27	النّاس	7	يأتوك/ليشهدوا/يذكروا/رزقهم/ليقضوا/ليوفوا/ليطوّفوا.
ح	33-32	شعائر الله	3	إنّها/لكم فيها/ ثمَّ محلّها
ط	35-34	المخبتين	6	قلوبهم/ الصّابرين(هم)/أصابهم/والمقيمي(هم)/ رزقناهم/ ينفقون.
ي	37-36	البُدن	9	جعلناها/ لكم فيها/ عليها/ جنوبُها/ فكلوا منها/ سخّرناها/ لحومها/ دماؤها/ سخرها.
ك	41-39	الّذين يُقاتَلُون	11	بأنّهم/ ظلموا/ نصرهم/ أخرجوا / ديارهم/ يقولوا/مكّناهم/ أقاموا/ آتوا/ أمروا/ نَهَوْا.
ل	45	قرية	4	أهلكناها/ وهي/فهي/ عروشها
م	47-46	الكافرين	5	يسيروا/فتكون لهم/ يعقلون/ يسمعون/ويستعجلونك
ن	48	قرية	3	أمليت لها/ وهي / أخذتها
س	59-58	الّذين هاجروا	5	قتلوا / ماتوا/ ليرزقنّهم/ ليدخلنّهم/ يرضونه
ع	66-65	الله	8	سخّر(هو) / بأمره /يمسك (هو)/ بإذنه /وهو/ أحياكم (هو) /يميتكم (هو)/ يحييكم (هو)
ف	78	الله	6	حق جهاده /هو/اجتباكم (هو) / وما جعل (هو)/ هو/ سمّاكم (هو).
المجموع	--	17	101	العناصر الإشارية = 17 العناصر الإحالية = 101

وقد اقتصر البحث والتّحليل في الجدول السابق – وفي مادة هذا البحث بوجه عام – على تتبّع ضمائر الغائب التي لها الدّور الأكبر في تحقيق التماسك النّصيّ ؛ "وذلك لأنّ الغائب لا بدّ أن يفسَّر داخل النصّ، فلا ينفعه المقام مفسِّرًا"[1] خلافًا لضمائر المتكلم والمخاطب التي تحيل عادةً إحالاتٍ مقاميّة غير نصيّة.

وبإعادة النظر في الجدول السابق ، نجد أنّ العدد الإجمالي للعناصر الإحاليّة المتمثِّلة بضمائر الغائب في المواضع المذكورة بلغ مئةً وضميرًا واحدًا بعد المئة(101) ، بينما بلغ العدد الإجماليّ للعناصر الإشاريّة (المراجع) التي تفسّر هذه الضمائر المرتبطة بها سبعة عشر عنصرًا إشاريًّا(17) ، ويمكن التعبير عن ذلك بالنسبة المئوية [17:101] والتي تساوي تقريبا [1:6] حيث يرجع للعنصر الإشاريّ الواحد ما يقارب ستة ضمائر ، ممّا يُعدّ دلالةً واضحةً على تعدُّدِ الضمائرِ الإحاليّة للمرجع الواحد، وهو أمرٌ في غاية الوضوح من جهة ، والدلالة على التماسك النصيّ الذي تؤدّيه الضمائر على امتداد السورة الكريمة من جهة أخرى .

وأمّا من حيث تصنيف الضمائر إلى منفصلة ومتصلة ومستترة ، فإنّ الجدول السّابق يبيّن ورودها بجميع أصنافها في السّورة الكريمة ؛ إذ يُعدّ الجدول المذكور عيّنة صادقة وممثّلة للضمائر المقصودة في السورة الكريمة ؛ لأنّه رصد الضمائر التي تتسم بتعدّدها لمرجع واحد في جميع صفحات السّورة الكريمة البالغة عشر صفحات ، إذ إنّه يمثلها جميعها دون استثناء ، وهو نموذج للبيانات الإحصائيّة الوارد ذكرها في الجدولين الأوّل والثاني اللّذين تقدّما في أوّل البحث .

ويبيّن الجدول رقم (4) الآتي عدد ونسبة كلّ نوع من ضمائر الغائب المذكورة في الجدول السّابق من حيث انفصالها ، واتصالها ، واستتارها.

جدول رقم (4) تصنيف الضمائر الواردة في الجدول الثالث من حيث النوع

نوع الضمير / التكرار	الضمائر المنفصلة	الضمائر المتصلة	الضمائر المستترة	العدد الإجمالي
العدد	6	75	20	101
النسبة المئوية	%6	%74.2	%19.8	%100

ويبدو من خلال هذا الجدول أنّ الضمائر المتّصلة تتصدّر المشهد في السورة الكريمة، انسجامًا مع ما تقدّم ذكرُه في الجدولين الأوّل والثّاني ، وهو أمر يعزّز التّماسك النصّي بصورة إضافيّة؛ لما تتميّز به الضمائر المتّصلة من قوّة الرّبط ؛ ذلك أنّها ليست بالمستترة التي يُضعِف اختفاؤها من حضورها، وليست بالمنفصلة التي يُضعِف انفكاكها من قوّة وصالها.

وأمّا من حيث دلالة هذه الضمائر على العدد فإنّنا نلحظ عدم وجود ضمير المثنّى، بينما تكرّرت ضمائر الإفراد والجمع كما في الجدول الآتي (جدول رقم 5).

(1) بوراس، الضمير ودوره في التشكيل الإحالي (ص32).

جدول رقم (5) تصنيف الضمائر الواردة في الجدول الثالث من حيث العدد

نوع الضمير / التكرار	المفرد المذكر	المفرد المؤنث	الجمع	المجموع
العدد	32	11	58	101
النسبة	%31.6	%11	%57.4	%100

ويبيّن الجدول رقم (5) تصدّر ضمائر الجمع ؛ وذلك انسجامًا مع مضمون الخطاب القرآني في السّور المكيّة الذي يخاطب النّاس جميعهم بالتفكّر في عظمة الخالق، ومظاهر قدرته ، والآيات الدّالة على وجوده ووحدانيته، وهي المضامين التي يحضر فيها الخطاب بصورة الجمع، فتأتي الضمائر الدّالة على الجموع هنا متوافقةً مع السّياق القرآنيّ شكلًا ومضمونًا، مما يضفي على النصّ تماسكًا فريدًا وترابطًا ذا حضورٍ بارز، ومن هنا يمكن تفسير ظاهرة غياب ضمير المثنّى؛ إذ لا وجود في سياق السّورة الكريمة لأيّ إحالاتٍ على المثنّى؛ لأنّ المقام هو مقامُ التذكير بوحدانية الخالق وتعداد مظاهر قدرته، جلّ وعلا.

وفي ختام الحديث عن سمة تعدُّد الضمائر الإحاليّة للمرجع الواحد في سورة الحجّ ، فإنّه يحسُن بنا الإشارة إلى ارتباط هذه السّمة بالسّمة الأولى التي تتعلّق بكثافة الضّمائر وتتابعها وقوّة حضورها ، فالضّمائر التي حقّقَتْ بتتابعها وتدفّقها تماسكًا نصيًّا لافتًا نجد أنّها – في الوقت ذاته – تعدّدت لمرجعٍ واحد في كلّ مقطع ، وترتّب على ذلك مزيدٌ من التآلف والتّماسك النصيّ على المستوى العام للنصّ.

كما تنبغي الإشارة إلى انسحاب هذه السّمة على الأغلبية المطلقة للضمائر التي شملها البحث كما ورد في الجدول الأوّل ؛ إذ ليس في أيّ ضميرٍ من ضمائر الجدول المذكور خلافٌ ذو شأن حول مرجعه ، بل إنّ الضمائر التي حدث خلاف في مراجعها في السورة الكريمة قليلة جدًّا ، والخلاف فيها يسير ، ومن الأمثلة عليها ما جاء في مستهلّ السورة الكريمة ، وهو ضمير (**ها**) المتصل بالفعل (**ترونها**) في قوله تعالى : **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)** [**الحج : 1– 2**]

قال البقاعيّ في نظم الدرر : " يوم ترونها أي الزلزلة ، أو كلّ مرضعة، أضمرها قبل الذِّكر، تهويلاً للأمر وترويعاً للنفس"[1] فهو يرى أنّ ضمير الهاء يمكن إعادته إلى مذكور سابق **(الزلزلة)** فتكون الإحالة قبليّة ، ويمكن إعادته إلى مذكور لاحق **(المرضعة)** فتكون الإحالة بعديّة ، وهو أمر يحتمله السياق ، والذي عليه أكثر المفسّرين والدّارسين أنّها إحالة قبليّة تعود على الزلزلة ، وهذا الملمح اليسير لا يكاد يظهر أمام سمة وَحدة المرجع ، وعدم غموضه ، أو الخلاف عليه ، مهما تعددت الضمائر المحيلة عليه .

رابعًا: الالتفات:

يُعدُّ الالتفاتُ بالضّمائر، والتنقّلُ بينَها سمةً بارزةً وملازمة لاستعمالها في سورة الحجّ؛ ذلك أنّه يمكن للمتأمّل في هذا النصّ القرآنيّ الكريم أن يقف على أمثلةٍ عديدةٍ ومتتابعة لظاهرة الالتفات بالضمائر، كما يمكن رصد تحوّلاتها في اتجاهاتٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (ج4/13).

عديدةٍ : من التكلّم للخطاب أو للغياب، ومن الخطاب للتكلّم أو الغياب، ومن الغياب للتكلّم أو الخطاب، وهذا الأخير هو المعنيُّ منها بالبحث؛ انطلاقًا من خصوصيّة دور ضمائر الغائب، وتتبُّع انزياحاتها، وأثر ذلك في التّماسك النصيّ.

وقد يبدو الذهاب للحديث عن هذه الظاهرة هنا أمرًا مستغربًا؛ إذ تُعالجُ قضيّة الالتفات – عادةً – ضمن الدّرس البلاغيّ، وضمن ما يسمّى في الدّراسات الأسلوبية بالعدول والانزياح ، إلّا أنَّ الباحث يرى أنَّ سمة الالتفات بالضمائر ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما تؤدّيه ضمائر الغائب من دورٍ فعّال في التماسك والانسجام النصّي ،"وهذا التّلاحم في الجمل يسمّى التّماسك النّصيّ في لسانيّات النص ، وللالتفات دورٌ كبير في خلق ذلك التماسك"[1] ، فيستحقُّ أن يكون له مزيدُ عنايةٍ في الدّراسات النصية .

وإذا كان النصيّون يرون أنّ ضمائر المتكلّم والمخاطب (الضمائر الحضوريّة) تنتمي إلى باب الإحالة المقاميّة أو الخارجيّة، وأنّ ضمائر الغائب –وحسب– هي التي تؤدّي دورًا داخليًّا في التماسك النصيّ، فإنّ الذي يبدو للباحث أنّ اقتران الضمائر الحضورية بالتفاتِها عن ضمير الغائب سمةٌ تستحقّ الدرس والنظر؛ ذلك أنَّ الالتفات "ليس محسّنًا بلاغيًّا جامدًا ، ولكنَّ الذي يحدّد هذه البلاغيّة هو القارئ حين يحدث انحرافًا في استخدام اللّغة"[2] ، فيغدو أمرُ الالتفات في الدّراسات النصية – وفق هذا المعنى – جديرًا بالاهتمام والتحليل.

وسيتم في هذا الجزء من البحث توضيحُ أبعاد هذه النظريّة، وبيان أثر الدّور الذي يساهم به الالتفات بين الضمائر في تقوية الروابط ، ودعم التماسك النصيّ بآفاقٍ جديدة، وسيتم إلقاء الضوء – قصرًا – على ضمائر الغائب التي يتبعها عدولٌ إلى المتكلّم أو المخاطب ؛ لما ستُكسِبه ضمائرُ الغائب للضمائر الحضوريّة المجاورة لها، والمعدولِ بها عن الغياب من دورٍ فعّال في تحقيق التماسك النصيّ.

ويرى النصيّون أنّ الإحالة النصيّة التي يكون فيها للضمائر اعتبارٌ في تحقيق الترابط النصيّ تقتصر على ضمير الغائب – كما تقدَّم– "فإذا كانت ضمائر الحضور متكلّمة ومخاطبة يغنينا المقام فيها عن الذكر، فإنَّ ضمائر الغياب بأنواعها العدديّة لا بدّ أن تذكر المرجع متقدّمًا أو متأخرًا"[3] ، وقد سبق القول إنَّ خطابي أشار إلى مصطلح "الأدوار الأخرى" الذي استعمله هاليدي ورقية حسن في سياق التأكيد على دور ضمائر الغائب .

ويستند النصيّون في تقرير هذا المبدأ –الذي هو على قدرٍ من الوجاهة والوضوح– إلى فعاليّة الرّبط الذي تؤدّيه ضمائر الغائب في تجميع شمل المفردات، والجمل، والمقاطع الواقعة ما بين الضمير المحيل الذي يسمونه عنصرًا إحاليًّا، والمرجع المحال عليه (المفسِّر) الذي يسمونه عنصرًا إشاريًّا ، ومن المعلوم أنَّ هذه المسافة " تتقسم باعتماد المدى الفاصل بين العنصر الإحاليّ ومفسِّره إلى نوعين: إحالة ذات مدى قريب، وإحالة ذات مدى بعيد"[4] ، كما أنّ هناك تصنيفاتٍ أخرى للإحالة وفق منطلقات مختلفة.

(1) مقري ، النص القرآني وبلاغة الأداء (ص151).
(2) هلال ، الالتفات البصري من النص إلى الخطاب (ص31).
(3) بوراس، الضمير ودوره في التشكيل الإحالي (ص32).
(4) الزناد، نسيج النصّ (ص123).

وإذا كانت الضمائر الحضوريّة لا تؤدّي هذا الدّور في التماسك والترابط "إلا من خلال سياق الموقف، وبعض الضمائر مثل (أنا – نحن) تعزّ أحياناً على تحديد المقصود"[1]، فإنّ ذلك لا يُلغي في الواقع دورَها في تحقيق شيءٍ من التماسك النصيّ الداخليّ ، علاوةً على دورها في الربط والتماسك الخارجيّ؛ لأنها في المحصّلة جزء رئيسٌ من المكوّن اللّغوي للنصّ ، وإن كانت تحيل إلى خارجه.

ويرى الباحث أنّ هذا الشيء من دور الضمائر الحضوريّة في التماسك النصيّ يكبرُ حجمُه ، وتزدادُ قيمته إذا كانت هذه الضمائر (المتكلّم والمخاطب) قد عُدِل بها عن ضمائر الغائب؛ ذلك أنّ "للالتفات قيمة كبيرة في تحقيق الترابط الضّميري في النصّ القرآنيّ ، بالإضافة إلى قيمته في التوكيد والتّخصيص ولفت الانتباه"[2] ، فكأنّما تستمدُّ الضمائر الحضوريّة من مجاورتِها لضمير الغائب ، والعدولِ بها عنه قدرًا أكبر في تحقيق التماسك والترابط النصيّ، وهو ما يتمّ عبرَ تقنية الالتفات .

مفهوم الالتفات وصوره

يشير المفهوم الواسع لمصطلح الالتفات في الدّراسات البلاغيّة والأسلوبيّة إلى ظاهرة مهمّة في اللغة ، وهي نقل الكلام من حالةٍ إلى أخرى ، أو من أسلوب إلى آخر ، فهو مصطلح عامّ للانتقال اللغويّ من حالة إلى أخرى ، وهو بذلك يتوافق مع المعنى اللغويّ لكلمة الالتفات ؛ إذ هي مصدر للفعل : التفت ، والذي يعني : انتقل ، تحوّل ، انصرف .

ويعرّف ابن المعتزّ الالتفات بقوله :"هو انصراف المتكلّم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة ، وما يشبه ذلك ، ومن الالتفات الانصراف عن معنًى يكون فيه إلى معنًى آخر"[3] على أنّ المصطلح تطوَّر عبر الزمن ليشمل في المحصّلة "كلّ تحول أو انكسار في نسق التعبير لا يتغيّر به جوهر المعنى"[4]، وهو مفهوم واسع يتضمّن الصور المتعدّدة لنقل الكلام من حالة إلى أخرى وفق أدوات متعدّدة ، وتعنى الدّراسات البلاغيّة والأسلوبيّة ببيان حدودِه وصورِه وجماليّاته ، فيما نهتمُّ هنا ببيانِ أثره مع ضمائر الغائب في تحقيق التماسك النصي .

وتشمل الآليّات التي يتمّ بها هذا التحوّل والانتقال صورًا متعدّدة منها : التحوّل في الصّيغ ، والانتقال في العدد ، والتبديل بين الضمائر ، والتنوع في الأدوات الرّابطة ، والتّغيير في البناء النحويّ ، والاستبدال المعجميّ ، وغير ذلك. على أنّ الذي يتّصل بالبحث هنا هو التبديل بين الضمائر ، وبصيغة أكثر تحديدًا ، فإنّ المقصود هو الانتقال من ضمائر الغائب إلى ضمائر التكلّم والخطاب ، إذ إنّها أكثر تعبيرًا عن أهمية الالتفات التي تتمثّل بأنّه نوع من أنواع العدول الأسلوبي " يسهم في اجتياز الوجه المعهود ، نحو تموقعٍ خاصّ ، يتضمّن التأثير والإمتاع توخيًا للمعنى المقصود الذي تقوده لذة النص"[5]، وهو ما يوضّح دور الالتفات في التماسك النصي ، وفق ما توضّحه الأمثلة التي سيأتي عرضُها ، والتي تمثّل التفاتًا من الغياب إلى الخطاب والتكلّم .

(1) عفيفي، نحو النص (ص121).
(2) إسماعيل ، الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النص القرآني (ص1087).
(3) ابن المعتز ، البديع (ص58).
(4) حسن طبل ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (ص55).
(5) العنبر ، المناهج الأسلوبية والنظريات النصية (ص1817).

1- الالتفات من الغائب إلى المخاطب وأثره في التماسك النصي

يمكن الوقوف على أمثلة عديدة في سورة الحج ، عُدِل فيها بضمير المخاطب عن ضمير الغائب ، ويمثِّل هذا العدول – وفق النظرية التي يقوم عليها هذا المبحث – نوعًا من أنواع التّماسك النصيّ عن طريق الضمائر ، وهو أمرٌ جديرٌ بالدَّرس والملاحظة ، ونحاولُ أن نتبيَّن أثر الالتفات في التّماسك النصيّ من خلال أمثلة ثلاثة من السورة الكريمة على النحو الآتي :

أ- **المثال الأول** : قوله تعالى في الإخبار عن أهل النار:ٱ

يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۖ [الحج : 19– 22]

حيث سارت الآيات الكريمة على نسق واحد بالإحالة إلى (الّذين كفروا) بضمير الغائب (لهم ، رؤوسهم ، بطونهم ، ولهم مقامع ، أرادوا ، يخرجوا ، أعيدوا) وتمّ الانتقال في نهاية المقطع إلى ضمير المخاطب بتوجيه الأمر للكافرين المكذِّبين:(□ □) على تقدير : وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق .

فحقَّق هذا الالتفات دورًا ملموسًا في تقوية الصِّلات اللفظية والمعنويّة بين السابق واللاحق؛ فأمّا على الصّعيد اللفظيّ فإنَّ مجاورة ضمير المتكلّم لضمائر الغائب مع وضوح المرجع المفسِّر أمرٌ ظاهر ، وأمّا من الناحية المعنويّة فإنَّ المعنى في غاية الانسجام والترابط .

ب- **المثال الثّاني** : قوله تعالى في ذكر الأمر بفريضة الحجّ :ٱ

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۖ [الحج : 27– 28]

حيث انتقل السياق من الإحالة للغائب إلى المخاطب، فقد كان نمط الغائب على النحو الآتي (يأتوك، ليشهدوا ، منافع لهم ، ويذكروا ، رزقهم) وانتقل في ختام الآية لصيغة الأمر الموجَّه للمخاطبين المؤمنين (فكلوا منها وأطعموا) فأدّى هذا الالتفات إلى عمقٍ في التماسك النصي في المقطع ، وأظهر أنَّ ضمائر المخاطب – كما في المثال السابق – إذا عُدِل بها عن ضمائر الغائب فإنَّها تكتسب دورًا مهمًّا في تحقيق التماسك والانسجام .

ت- **المثال الثالث** : قوله تعالى في تعظيم شأن المناسك :

(34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ [الحج: 34]

فانتقل من صيغة الغائب (□ □ □ □ □ □) إلى صيغة المخاطب (□ □ □ □ □) ، والشّواهد على هذه السّمة كثيرة في السورة ، وهي تستدعي الانتباه للدّور الكبير الذي تؤدّيه الضّمائر الحضوريّة للمخاطب ، عندما يُؤتَى بها عدولا عن ضمائر الغائب ، فكأنَّها تكتسب من دور ضمائر الغائب في الإحالة ، أو كأنَّها تنوب عنها في المحافظة على التّماسك النصي ، مع ما تتميّز به من جماليّة التركيب ، وتعدُّد الأغراض البلاغية التي تؤدّيها ، وفق ما عني به الدرس البلاغيّ والأسلوبيّ .

وقبل الانتقال للحديث عن الالتفات من الغائب إلى المتكلّم ، فإنّه يحسُن بنا أيضًا الانتباه إلى ذلك الانسجام المضمونيّ المتعلّق بالمعنى ، والذي يحقّقه نقل الكلام من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب ، فالخطاب في المثال الأوّل موجّهٌ للكافرين ، بعد أن كان ذكرُهم في الآية عن طريق الغياب ، فكأنّما أحضرهم من غيابهم للموقف ، وكأنّما أشهدهم العذاب الأليم ، وقرع أسماعهم بالخطاب تقريبًا للحدث منهم ، وتحقيقًا لوقوعِه عليهم ، فجاء الخطاب لهم مباشرًا واضحًا:(□ □ □) .

وفي المثال الثاني ، كان ذكر المؤمنين بصيغة الغياب ، فانتقل إلى صيغة المخاطب ، فكأنّما أحضرهم للموقف ، وذكّرهم بعظيم النعمة عليهم ، ورسّخ في نفوسهم معاني التوحيد ، ووجّه الأمر لهم بصورة الخطاب المباشر المعدول به عن الغياب : (□ □ □ □) .

وفي المثال الثالث ، جاء العدول عن ضمير الغائب إلى المخاطب ، فكأنّما جَمع الأمم السابقة ، وأحضرها جميعًا مع الأمم اللاحقة ، ووجّه الخطاب لهم : (□ □ □ □ □) تأكيدًا على هذه الحقيقة الإيمانيّة ، وتعظيمًا لشأن التوحيد ، الذي كان ذكرُه في أسلوب الخطاب عدولا عن الغياب أقوى في التماسك ، وأبلغ في الإخبار .

2- الالتفات من الغائب إلى المتكلم وأثره في التماسك النصي

ويمكن الوقوف مع ثلاثة أمثة أيضًا لنتتبّع دوره في تحقيق التّماسك النصيّ على النحو الآتي :

أ- **المثال الأول** : قوله تعالى في الإخبار عن صدّ الكافرين عن المسجد الحرام: **(25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [الحج : 25]**

إذ تحوّل الأسلوب من الإخبار عن الّذين كفروا / يصدّون = (الغائب) إلى صيغة ضمير المتكلّم في (جعلناه) ، فساهم ضمير المتكلّم بصيغة الجمع الدّالة على التعظيم في تحقيق التّماسك النصيّ شكلًا ومضمونًا ، فالضّمير يحيل إلى الخالق جلّ وعلا كما يُفهَم من خلال السياق (إحالة مقاميّة) ، إلّا أنّ مجاورته لضمائر الغائب ، والعدول به عنها يضفي عليه قوّة في الحضور والربط والانسجام ، وذلك من عدّة وجوه : أوّلها : أنّ هذا العدول يحقّق غرضًا بلاغيًّا بدلالته على أهميّة المسجد الحرام وتعظيم مكانته ، ومنها : أنّ اقتران ذكر المسجد الحرام بإرادة الله تعالى إنّما هو إشعار بردّ كيد الكافرين ، وإبطال صدّهم عنه ، ومنها : أنّ الانتقال من الغائب (كفروا ، يصدّون) إلى المتكلّم (جعلناه) يهيّئ المتلقي ، فيصير منتبهًا متشوّقًا لمعرفة حكم الله تعالى في أولئك الصّادّين المكذّبين ؛ لأنّ الانتقال إلى صيغة المتكلّم العائدة على ذات الله تعالى يشعر بعظمة وهيبة الأمر ، وهو ما خُتمت به الآية الكريمة (□ □ □ □ □) ، حيث تكرّر الالتفات فيها مرّة أخرى على النمط السّابق .

ب- **المثال الثاني** : قوله تعالى في الإخبار عن الأمم السابقة تسليةً للنبيّ – صلّى الله عليه وسلّم –: **وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ [الحج : 42– 44]**

إذ كان السّياق للغائب في الإخبار عن الأمم التي كذّبت رسلَها وأنبياءها، وانتقل بعد ذلك للمتكلّم (□ ، □) العائد على الحقّ سبحانه وتعالى بالإحالة المقاميّة المفهومة من السياق .

ويتّضح هنا كيف يكون ضميرُ المتكلّم المعدول به عن ضمير الغائب عاملًا إضافيًّا للتماسك النصي ، وذلك بما يحقّقه هذا الالتفات من ربط بين عناصر المقطع النصيّ ، وبما يسبغه على النص من قوّة تعبيريّة ؛ فالنبيّ – صلّى الله عليه وسلم – باعتباره المتلقي الأوّل لهذا النصّ ، يستمع إلى أخبار الأمم السّابقة ، ويسرد عليه النصُّ القرآني أخبارَ تكذيبهم لأنبيائهم ، وأنّه ليس أوّلَ نبيٍّ يكذّبه قومه ، ثم لا يتركه النصّ القرآنيّ في سطوة ذلك الإخبارِ عن الغيب الماضي ، حتّى ينتقلَ به عدولًا عن أخبار السّابقين بضمير المتكلّم الحاضر(أمليتُ ، أخذتُهم ، نكيرِ– ي) ليحقّقَ ربطًا عميقًا للفكرة ، وتأثيرًا فاعلًا في قلب النبيّ – صلّى الله عليه وسلّم –، بأنّه تعالى نصيرُ أنبيائه ورسله ، وكفيل دينه ودعوته .

ت– المثال الثالث : قوله تعالى في الحكم بين المؤمنين والكافرين : **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (57) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴿**الحج : 56– 57**﴾

إذ نلحظ تغيّر الأسلوب من الغائب (كفروا ، كذّبوا) إلى المتكلّم (بآياتنا) ، فالإحالة المقاميّة هنا أيضًا تأتي في سياق العدول بضمير المتكلّم عن ضمير الغائب ، وإنْ كانت ضمائر الغائب تحقّق التّماسك النصيّ برجوعها إلى عنصر إشاريّ مذكور في النص ، فإنّ ضمائر المتكلّم في هذا المثال ، وفي المثالين السابقين تشيرُ إلى أنّ مجاورتها لضمائر الغائب تمدُّها أيضًا بدورٍ واضح في تحقيق التماسك النصيّ ، وتستكمل معها حلقة الترابط والتماسك .

إنّ استعراض هذه الأمثلة الثلاثة للالتفات من الغائب إلى المتكلّم ، والأمثلة الثلاثة التي سبقتها للالتفات من الغائب إلى المخاطب – يؤيّد النظريّة المركزيّة التي يقوم عليها هذا الجزء من البحث ، فهذان النّوعان من الالتفات الضميريّ يبدو أنّهما يساهمان مع ضمائر الغائب في استكمال دور الضّمائر في تحقيق التماسك النصيّ ؛ ذلك بحكم المجاورة المتحصّلة بينهما عن طريق الالتفات ، وبحكم الترابط المضمونيّ الذي يستكمل الفكرة المقصودة بالعدول ويوضّحُها ويعمّقها ، وبحكم الاقتران اللُّغويّ الذي يأتي في صورة من الترتيب ، والتناسق الشكليّ الذي يؤدّي بدوره أيضًا إلى مزيد من التماسك والترابط والانسجام .

وفي ختام الحديث عن سمة التّماسك بالالتفات التي عني بها هذا المبحث ، وهي السّمة الرابعة من سمات الإحالة بالضّمائر في سورة الحجّ – فإنّه يبدو للباحث أنّ الدّور الذي يؤدّيه هذا النوع من الالتفات في تحقيق التماسك النصيّ دورٌ فعّال ، ينضاف إلى دور ضمائر الغائب في هذا المجال ، وهو بابٌ واسعٌ – كما يبدو – لمزيد من البحوث والدّراسات .

خاتمة

لقد تتبّع هذا البحث الإحالات الضّميرية في سورة الحجّ ، وكشف عن دورها في تحقيق التّماسك النّصيّ ، باعتبارها من أهمّ الروابط الإحاليّة التي تشكّل نسيج النصّ ، وتوصّل البحث إلى أربعِ سماتٍ للضمائر الإحاليّة في سورة الحجّ ، ساهمت بمجملها وضمن علاقاتها الترابطيّة ، وبالتقائها وتداخلِها أحيانًا ، بتحقيق التّماسك النصيّ في السورة الكريمة ، وهذه السّمات الأربع هي :

1. **كثافةُ الضمائر الإحاليّة** ، وتدفّقُها ، وقوةُ حضورِها ، ممّا أضفى على النصّ عمقًا في التّماسك ، وقوّة في الربط والانسجام .
2. **تنوّع المجال الإحاليّ للضّمائر** ، فبعضُها يحيل إلى مدًى قريب ، وبعضُها يحيل إلى مدًى متوسّط ، وبعضها يصل إلى المدى البعيد . والنص مع تنوّعِ مجالها الإحاليّ في غاية القوّة والتماسك .
3. **تعدّدُ الضمائرِ الإحاليّةِ للمرجعِ الواحد** ، إذ نجد أنّ ظاهرة تعدّد الضمائر للمرجع الواحد تكرّرت بنسبة [1:6] (ستة ضمائر للمرجع الواحد بالنظر إلى متوسط النسبة المئوية وفق عيّنة ممثِّلة) ، وأدّى هذا التعدّد الإحاليّ إلى مزيد من التماسك النصي في السورة .
4. **الالتفاتُ والتنقُّلُ بين الضمائر** ، وهي سمةٌ يرى الباحث أنَّها إضافة جديرة بالاهتمام ، كشف عنها البحث ؛ إذ يساهم الالتفات في تحقيق التماسك النصيّ بالعدول من الغائب إلى المتكلّم أو المخاطب .

المصادر والمراجع

1. البستاني، بشرى، والمختار، وسن. (2011م). في مفهوم النص ومعايير نصيّة القرآن الكريم. *مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية جامعة الموصل*، 11(1)، 174-196.
2. البقاعي، إبراهيم بن عمر. (1978م). *نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور* . ط1. (د.م): دار المعارف العثمانية .
3. بوراس، سليمان. (2014م). الضمير ودوره في التشكيل الإحالي. *مجلة الدراسات اللغوية والأدبية ماليزيا* ، دون مجلد ،العدد (2)، السنة الخامسة، 23-40.
4. البيضاوي، عبدالله بن عمر. (د.ت) . *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*. ط1. بيروت : دار إحياء التراث العربي.
5. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي.(2002م). *زاد المسير في علم التفسير* . ط1. بيروت : المكتب الإسلامي ودار ابن حزم .
6. خطابي، محمد.(1991م). *لسانيات النص- مدخل الى انسجام الخطاب*. ط1.بيروت : المركز الثقافي العربي.
7. دي بوجراند، روبرت. (1998م). *النص والخطاب والإجراء* ، (ترجمة تمام حسان). القاهرة : عالم الكتب .
8. الزعبي، معاذ. (2017م). الوظائف النصيّة لعناصر الاتساق – تطبيق على سورة هود ، *مجلة دراسات- العلوم الإنسانية والاجتماعية الجامعة الأردنية*، 44(4)، 295-311.
9. الزمخشري، محمود بن عمر(2009م). *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. اعتنى به: خليل مأمون شيحا. ط3. بيروت : دار المعرفة.
10. الزناد، الأزهر. (1993م). *نسيج النصّ*. ط1 . بيروت : المركز الثقافي العربي .
11. سلامة،هبة الله بن سلامة.(1967م). *الناسخ والمنسوخ* . ط2. مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.
12. السيوطي،عبد الرحمن بن أبي بكر.(2005م). *الإتقان في علوم القرآن*. تحقيق: مركز الدراسات القرآنية . المدينة المنورة : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .
13. الصّبيحي، محمد الأخضر. (2008م). *مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه*. ط1 . الدار العربية للعلوم – ناشرون.
14. طبل، حسن.(1998م). *أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية* . ط1 . القاهرة : دار الفكر العربي .
15. عبدالباسط عيد، محمد. (2009م). *النص والخطاب قراءة في علوم القرآن* . ط1. القاهرة : مكتبة الآداب .
16. عرباوي، محمد.(2010م). *دور الروابط في اتساق وانسجام الحديث القدسي*(رسالة ماجستير غير منشورة – مصورة الكترونيًّا). جامعة الحاج الخضر باتنة، الجزائر .
17. عفيفي، أحمد. (2001م). *نحو النص – اتجاه جديد في الدرس النحوي* . ط1. القاهرة : مكتبة زهراء الشرق .
18. عكاشة، محمود. (2014م). *تحليل النص* . ط1. القاهرة : مكتبة الرشد .
19. العنبر، عبدالله. (2016م). المناهج الأسلوبية والنظريات النصية ، *مجلة دراسات- العلوم الإنسانية والاجتماعية الجامعة الأردنية*، 43(ملحق4)، 1811-1831.

20. العيني، محمود بن أحمد.(2001م). *عمدة القاري شرح صحيح البخاري* . ط1. بيروت : دار الكتب العلمية.
21. غريب قادر، فخرية.(2017م). *الانسجام في الخطاب القرآني* . ط1. إربد، الأردن : عالم الكتب الحديث .
22. فولفجانج، هاينه، وفيهفجر، ديتر.(2004م). *علم لغة النص* ،(ترجمة سعيد حسن بحيري). القاهرة : مكتبة زهراء الشرق .
23. قطاوي، محمد مصطفى. (2016م). الضمير وبعده الدلالي في شعر عبدالكريم الكرمي. *مجلة دراسات– العلوم الإنسانية والاجتماعية الجامعة الأردنية*.43(1)، 95–115.
24. قطب، سيّد. (2003م). *في ظلال القرآن*. ط32 ، القاهرة : دار الشروق .
25. محمد إسماعيل، نائل. (2011م). الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النص القرآني . *مجلة جامعة الأزهر غزة – سلسلة العلوم الإنسانية*. 13(B1)، 1061-1100.
26. ابن المعتز، عبدالله ابن المعتز.(1985م). *البديع* . اعتنى به وعلّق عليه : أغناطيوس كراتشقوفسكي . ط1. دمشق : منشورات دار الحكمة.
27. مفتاح، إبراهيم. (2015م). *التماسك النصي للاستخدام اللغوي في شعر الخنساء* . ط1. إربد، الأردن : عالم الكتب الحديث.
28. مقري، معاذ.(2016م). النص القرآني وبلاغة الأداء ، *مجلة إشكالات في اللغة والأدب*، الجزائر : معهد الآداب واللغات بالمركز الجامعي ، دون مجلد ،العدد (9)، 148–160.
29. هلال، عبد الناصر. (2010م). *الالتفات البصري من النص إلى الخطاب* . ط1. القاهرة : دار العلم والإيمان.
30. يونس، أحمد عزت. (2014م). *العلاقات النصيّة في لغة القرآن الكريم* . ط1. القاهرة : دار الآفاق.